

الفصل الأول التجارة العالمية

الفرع الأول

المبحث الأول:

نصوص الكتب الدينية

مصر مغدى ومراح لجيرانها منذ عصورها الأولى وفيهم الأنبياء،
وإليك بعض الأمثال:

جاء في سفر التكوين بالتوراة (الإصحاح ١٢) تحت رقم ١١: [وحدث
جوع في الأرض فانحدر أبرام (إبراهيم) إلى مصر ليتغرب هناك] وتحت رقم
١٣ أنه قال لامرأته ساراي: (قولى: إنك أختى ليكون لى خير بسببك) وتحت
رقم ١٥ - ٢٠: (ورأها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأخذت
المرأة إلى بيت فرعون، وصنع بأبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر
وحمير وعبيد وإماء وأُتُنٌ وجمَالٌ، فضرب الله فرعون وبيته ضربات عظيمة
بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام، وقال: ما هذا الذى صنعت؟
لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك؟ لماذا قلت: هى أختى حتى أخذتها لتكون
زوجتى؟! والآن هو ذا امرأتك، خذها واذهب. فأوصى عليه فرعون رجالاً
فشيعوه وامرأته وكل ما كان له).

وفي الإصحاح ١٣ تحت رقم ١ - ٤: (فصعد أبرام من مصر - وكل
ما كان له، ولوط معه، إلى الجنوب، وكان أبرام غنياً جداً في المواشى
والفضة والذهب).

وتحت رقم ١٥: (ولوط القادم مع أبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام، ولم تحتملها الأرض أن يسكنا معا، فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشى أبرام ورعاة مواشى لوط..).

وتحت رقم ١٠: (فرع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن جميعها سقى قبلما أخرج الرب سدوم وعمورة كجنة الرب: كأرض مصر).

وتحت رقم ١٤: (وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه: ارفع عينك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً؛ لأن جميع الأرض التى ترك لك أعطيها ونسلك إلى الأبد..).

فإبراهيم ولوط قد استثمرا استثماراً صالحاً في أرض مصر. وفي الاصحاح السادس عشر: أن (أبرام تزوج هاجر المصرية فولدت له إسماعيل بن أبرام).

وفي التاسع عشر أن الله قال لأبرام: (وتكون أباً لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون إبراهيم؛ لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيراً جداً، وأجعلك أمماً) وقال: (سارة امرأتك تلد لك ابناً اسمه إسحاق) وقال: (وأما إسماعيل فأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة).

ومن بعد إبراهيم أبى الأنبياء جاء يوسف - عليهما السلام - في عهد الهكسوس وقد تحدثت عنهم الملكة حتشبسوت ملكة مصر بعد انقضاء دولتهم، حيث قالت: (لقد أصلحت الخراب، وأتممت ما كان ناقصاً قبل مجئ الآسيويين إلى هواره وعرة في أرض محافظة الشرقية بمصر" وكان منهم يومئذ من الهمج من وجهوا جهودهم إلى تخريب العمائر جهلاً منهم بوجود رع) ورع: هو الإله.

أما يوسف فألقاه إخوته في الجب حسداً، لميل أبيه يعقوب إليه، والقرآن الكريم يحدثنا حديثاً في قول الله - تعالى - : ﴿وجاءت سيارة﴾ (٢٢٦) فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرره بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴿﴾ (٢٢٧) وفي مصر باعت السيارة يوسف.

وقاد يوسف جهود اقتصاد الدولة واتجر مع ذويه واستوفد الرسل. ثم ولد موسى - عليه السلام - في مصر ليصير نبياً يكلفه الله بدعوة فرعون: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتحشى﴾ (٢٢٨).

والقرآن يقص أحسن القصص، ويفصل عمل بنى إسرائيل مع موسى، ويذكر اسم مصر فيمنحها ما لم يمنح غيرها من الكرامات.

بل إنك لتقرأ القسم العظيم من القرآن العظيم بالأرض المقدسة في سورة التين بطور سينين، ويضاف إليه قسم مثله بالطور في سورة (الطور) وما تزال مصر وفيه بتكاليف رسول الله ﷺ لها بالدفاع عن الإسلام بالجند وبالعلم إلى يوم القيامة.

وكما كانت بمصر جالية عبرانية وجدت فيها جالية للإغريق تخدم تجارة مصر مع جزر البحر الأبيض وشاطئه الشمالي.

ولما فتح الإسكندر المقدوني مصر في القرن الرابع قبل الميلاد قصد إلى معبد آمون في سيوة وترك حكاماً من الإغريق تمصروا، وانتهوا بكليوباترا حتى غلب عليها قياصرة الرومان.

(٢٢٦) سيارة: قافلة

(٢٢٧) سورة يوسف الآيتين ١٩، ٢٠

(٢٢٨) سورة النازعات الآيات من ١٧، ١٩

ومنذ الدولة المصرية الأولى التي بنت الأهرام من خمسة آلاف عام كانت مصر تستورد الأخشاب من لبنان، وقد أوجها إليها التشييد الضخم الذي تشهد عليه آثاره.

وسنرى المصريين يستوردون الأفاويه والتوابل من وسط أفريقيا من بلاد بونت (الصومال) عن طريق البحر الأحمر، مع عبور شاطئة إلى اليمن. وللمسلمين عهد بالحبشة من أول نزول الرسالة الخاتمة بالهجرتين الأولى والثانية إليها في السنوات السابقة على قيام الدولة بالمدينة، والمؤكد أن النجاشي ملك الحبشة قد دخل في الإسلام، ولما مات صلى عليه الرسول عليه الصلاة والسلام.

وحديث فرعون في القرآن الكريم طويل، وفيه وفي غيره الكثير عن مصر كدولة، وعن التجارة فيها، في حين لانجد في قصص القرآن أو في آياته الأخرى دولة كمصر، وظهور أصحاب الرسالات فيها أو على أديمها لينجوا من المجاعة كإخوة يوسف وأبيهم وإبراهيم ولوط، أو لوأذا بالأمان فيها كالسيد المسيح وأمه، بل ضرب القرآن مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون واقتصار كل ذلك على مصر يكشف لنا عن مكانتها^(٢٢٩).

ومن آثار ذلك مرنت مصر على التعايش مع الجاليات من آسيا وأوروبا وعلى الوافدين منهم إليها.

(٢٢٩) في ترحيب شوقي (بهول كين) يقول له عن مصر:

هول كين مصر رواية لا تنتهي .: منها يدُ الكتاب والشرائح

فيها من الردى والمزور والتور .: راة والفرقان والإصحاح

فالردى نبات صنع منه الفراعة الورق والمزور: مزار داود، والثورة: كتاب اليهود.

والفرقان هو القرآن، كتاب الإسلام، والإصحاح: يقصد به الإنجيل للمسيحية.

المبحث الثاني:

في الجاهلية

في جزيرة العرب كانت رحلتا الشتاء والصيف اللتان حدثتا عنهما القرآن الكريم في سورة قريش ﴿إيلاف قريش﴾ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿٢٣٠﴾ إذ كانت جزيرة العرب تسهم في تجارة الشمال والجنوب بين الشام والحبشة عن طريق مكة واليمن، وبين مكة وفارس. والروم والأحباش أمتان مسيحتين تتواصلان بقوافل عربية دائبة يمتهن رجالها حرفتى النقل والتجارة، كما تسير القوافل إلى فارس، وللعرب فيها نصيب، يتصارعون عليه.

ومكة بنشاطها الثقافي والتجاري، وموقعها الجغرافى، ومقامها الدينى، نواة دولة كالجمهورية دون أن تعلن، ككثير من مدن العصر الوسيط في أوربة، تحدث عن تجاراتها من نحو سبعمائة عام قبل الإسلام المؤرخ (سترابون) وهو جغرافى رومانى ولد في عام ٥٨ قبل ميلاد المسيح فقال: (إن من القوافل التجارية ما بلغت غيره ألفا وخمسمائة) ولا يمكن أن تبلغ العدد المشار إليه إلا أن تضرب جذور نشاطها في القدم. وفيه دلائل على العلاقات الطيبة بين القبائل الضاربة بخيامها أو المقيمة بقراها في الطريق أو على جنباته. وعلى فضائل هذه القوافل من أداء الأمانات، وصدق الكلمة، وحدة الذكاء آلت إليهم أو إلى الكثيرين منهم ثروات يتحدث عنها التاريخ.

وكانت قوافل التجارة مألفا لرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ولا ريب كان خروجه فيها مرة بعد مرة مع عمه أو بمال أم المؤمنين خديجة تدريباً للرسول الخاتم على أن يتعامل مع من عدا قريشاً أو العرب.

ولم تمض سنوات على وفاة رسول الله ﷺ حتى رأينا تجارا أجنبيا وأفدينا على دار الإسلام ببضاعتهم في خلافة أمير المؤمنين عمر، حيث أخذت أموال الفتوح تنصب في ديار الإسلام، فأمر عمر بأن يعاملهم المسلمون بمثل ما يعاملون المسلمين في ديارهم، فأخذوا منهم العشر كما كانوا يعشرون تجارة المسلمين.

وفي عهد الرومان كان المصريون يأخذون المكوس من التجار الوافدين من وراء ذلك الجانب من الحدود.

ويدلنا على قيمة التجارة الواردة من الخارج اهتمام أمير المؤمنين على ابن أبي طالب بتجار الخارج.

وضرب أمير المؤمنين عمر عملة دراهم يتعامل بها المسلمون مع الدراهم اليونانية وسك أمير المؤمنين عثمان عملة دنانير في مقابل الدنانير الفارسية.

وسترى عبد الملك بن مروان يسك عملة تحل محل الدينار (الفارسي) والدرهم (اليوناني) إذ كانا مقبولين في ديار الإسلام منذ الجاهلية، وأقر الإسلام التعامل بهما.

وسنرى التجارة الخارجية تزداد مع الغزو الصليبي لبلاد المسلمين على مدى قرنين من الزمان (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ الخامس والسادس الهجريين).

ثم أصبحت مياه البحر الأبيض طريقا مألوفاً إلى جمهوريات جنوة وأملقي والبندقية (فينيسيا) لسفائن رائحة غادية بالتجارة مع الموانئ العربية في المهديّة، والقيروان بأفريقية والاسكندرية، وتيس بمصر.

ووجدنا دولة الفاطميين بمصر مسيطرة على الاقتصاد في تجارة الخارج كما سيطرت في الداخل، فتملك (الخليفة الفاطمي) الحوانيت، وأصبح للدولة

في ثغر "تيس" ألف سفينة تجوب الشواطئ بتجارات مصر وسلعها والسلع المنقولة لأهل آسيا أو منها ومن أوروبا أو إليها على سفائن مصرية. والقلقشندي يحدثنا في صبح الأعشى في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) عن تيس فيقول: (وفي بطن الريف "دلنا النيل" سبع كور "بها" كورة (تيس ودمياط).. والجاري على الألسنة الآن أنها كانت مدينة عظيمة طغى عليها الماء قبل الفتح الإسلامي بمائة سنة، فأغرق ما حولها وصارت بحيرة - وهي الآن قرية صغيرة في وسط البحيرة، والماء يحيط بها.. وكانت تربتها من أخصب الترب، وبها تحاك الثياب النفيسة التي ليس لها نظير في الدنيا...).

وظاهر أنها كانت على قيد كيلو مترات من دمياط، وقد طالما حاول الصليبيون أن ينزلوا في شواطئها.

وذكر السيوطي (٩١٢) في كتابه (كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة) أن زلزالا وقع بتيس سنة ٢٤٥هـ قبل سقوط دولة ابن طولون وقيام الدولة الفاطمية.

المبحث الثالث:

البحران الأبيض والأحمر بحيرتان إسلاميتان

المسلمون في الأندلس وجزرها (غرب البحر الأبيض) من آخر القرن الأول سنة ٩٣هـ (الثامن الميلادي) وفي جنوب فرنسا، ثم فتح قاضي القيروان أسد بن الفرات صقلية سنة ٢١٢هـ في القرن التاسع الميلادي.

ولم يتوقف المسلمون عند الأندلس أو صقلية أو فرنسا، بل حاولوا الاستقرار في إيطاليا فرأيناهم في مدينة "باري" الحالية بعد سنوات قليلة، وفي القرن التاسع ذاته وجدناهم في روما عند كنيسة القديس بولس والقديس

بطرس. ويحدثنا ابن حوقل عن التجارة البحرية للدولة الفاطمية مع كامبانيا ومع جمهورية أمالفى وسالرنو في جنوبى شبه الجزيرة الإيطالية وفيها أسس قسطنطين الأفريقى مدرسة للطب يتولاها الأساتذة العرب.

وبعد عام ١٠٠٠ ميلادية كان تأثر البابا سلفستر بالعرب الذين تلقى عليهم العلم في الأندلس يظهر رويداً رويداً في الأرقام العربية التى نقلها الأوروبيون لتحل للآن محل اللاتينية، وما تبع ذلك من اقتباس علامة الصفر لتكون من قواعد الرياضيات العالية، ووجدت اللغة العربية سبيلها إلى الشعر والتجارة، والحرب والسلام، فتجد ألفاظ (الجبة والقفطان والشركة والبردة ودار الصناعة "أرسنال") والمئات أو الآلاف من آثار العرب وإصرارهم على أن يدخلوا أوروبا بالعلوم من الجنوب في إيطاليا مثلما دخلوها عن طريق الغرب في قرطبة وقشتالة وغرناطة وسواها عن طريق الطلاب الوافدين من كل إقليم أوروبى كما مر بنا.

وفي هذا القرن - العشرين للميلاد - يحدثنا مؤرخ بلجيكى معاصر هو بيرن عن القرن السابع الميلادى (الذى ظهر فيه الإسلام) أن هذا القرن شهد تغييرات في البلدان الواقعة على شواطئ "البحر المتوسط" في مصر وأفريقية (تونس) والمغرب حتى صارت في القرن التاسع ختاماً للتاريخ القديم وبداية للعصور الحديثة، وأن الإسلام ختم عصر الظلام وافتتح الفجر الجديد للعالم. ومن مقولاته المنقولة عن السابقين: (لولا محمد لما كان شارلمان) أى: أن ظهور الإسلام أحدث تجميع أوروبا في إمبراطورية شارلمان في السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى.

وفي العصر المشار إليه كانت كريت وصقلية وقبرص ومالطة وجزر الأندلس تتغنى بحضارة العرب بعد إذ أحاط جيش مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية لمدة عامين كما ظلت كريت في حوزة العرب نيفاً وقرنين من

٧٢٧ إلى ٩٦١م ومثلها جزر غرب البحر الأبيض. وحصار القسطنطينية في القرن الثامن الميلادي، يصور لنا سيطرة كاملة على البحر الأبيض في الشرق مثل السيطرة التي سبقتها في الغرب.

في هذه الأماكن من إيطاليا واليونان ثم القسطنطينية بعد فتحها للإسلام في القرن الخامس عشر الميلادي سلم المسلمون الأرض للناس ورفعوا عنها يد الكنائس وأدخلوا إليها زراعات لا تعرفها أوروبا. ونشطت اقتصادياتها، بتجارات العرب وتجارات الشاطئ المقابل في أوروبا بالحبوب وبالقطن وبأصناف الفاكهة متجهةً من الجنوب إلى الشمال، وبالأخشاب والفاكهة متجهةً من الشمال إلى الجنوب. ومن المؤرخين من يقول عن صقلية في هذه الفترة: (إن الفترة العربية تظل بالفعل أعلى قمة وصلتها صقلية) (٢٣١).

وفي مصر مجمع القارتين آسيا وأفريقيا عن طريق القوافل. والبحر الأحمر يجمع مصر وجزيرة العرب حيث الميناءان عيذاب وجدة. والجمال تنقل السلع إلى قوص أو منها في شمال عيذاب، أو تنقل من عيذاب لتتخذ السلع طريقها إلى الفسطاط.

وكان فندق "الكارم" بالفسطاط نزلاً للتجار الأجانب.

ثم حلت ميناء الطور (في سيناء) محل عيذاب تقصد إليها السفن من اليمن، ثم غلبت السويس على ما عداها من الموانئ في البحر الأحمر بالتجارات الواردة إلى القاهرة من الشرق. وكانت المكوس تدفع في قرى الطريق للدولة أو للأمير صاحب الاقطاع، ثم ألغى صلاح الدين مكوس الفاطميين لما كان فيها من غلو، فتقاطرت التجارات من أوروبا وإليها.

(٢٣١) صقلية الآن بعد نيف وألف عام من عودتها إلى الجانب الأوروبي هي جزيرة الجرائم العظمى وعصابات المافيا التي تسببت في تغيير النظام السياسي الإيطالي كله.

أما عن الشرق الأقصى ففي سنة ٨٢٢هـ/ نحو ٧٠٠م كان ميناء كانتون الصينى مفتوحا للعرب، وفي سنة ٨٩٩هـ فتحوا بخارى، وفي سنة ٩٣٠ فتحوا سمرقند، وفي سنة ٩٤٤هـ فتحوا كشغر على حدود الصين، ومنذئذ تواصل أهل هذه البلاد والعرب.

وفي أواخر القرن الثانى الهجرى (أوائل التاسع الميلادى) كان العرب قد استقروا في ميناء خانفو جنوبى شنغهاى في شمال شرق آسيا، ولهم قاض مسلم، كما استقر العرب في ملقا وجاوة في جنوب القارة يجلبون عطور الصين، وتوابل الهند، وبعد أن وصلوا إلى نهر سايخون في الصين كانت تجارتهم تمر بهضبة التبت: الحرير من الصين، واللؤلؤ من عيذاب، والياقوت والماس من سرنديب (سيلان) وجلود الثعالب (الفراء) من روسيا.

وأما بلاد الروم (أوروبية) فمنها الجلود و"الراقيق" فلقد كانت بلاد الروم تباع الرقيق الأبيض للمسلمين، ولم تضمحل التجارة العربية مع الصين عن طريق فارس إلا بعد أن اشتهرت "مرو" بتجارة الحرير، فالحرير من خراسان، والنسيج الملون من قشمير (كشمير) والمسك والدارصينى من الصين، والعطر من اليمن، والمصوغات من فارس، والخيزران والكافور والقرنفل والثياب القطنية والتيلية من الهند والسند.

وكانت زراعات العرب أعظم الزراعات، لقد قدم أحد ولاة الرشيد إليه بين (١٧٠ - ١٩٣) في أواخر القرن الثانى الهجرى وأخر القرن الثامن الميلادى عنقودين من العنب محملين على بعير!! وكان أهل فلسطين يلحقون الكروم كما يلحق النخيل بالطلع!!

وما يزال اسم الحرير باللغات الأوربية وصفاتها "موصليا" من الموصل أو "دمشقيا" من دمشق، أما مصر فمشهورة بالورق الذى تنتجه مصانع البردى، وبملابسها (القباطى) نسبة إلى القبط، وبصناعة السفن والأدوية.

وفي بغداد مصانع الزجاج والخزف. وبالشام صناعة الزجاج المطلقى بالميناء لمجتمعات الرفاهية حيث الجدران تغطى بالديباج، والتجارات العالمية مستمرة مع الحرب الصليبية المستمرة!.

يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر بريفو: (كانت أوروبا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من الصناعات والعلوم .. بل إن الكنيسة نفسها كانت تلتمس عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسي..).

ومن قديم صرح روجير بيكون (١١٩٢) (بأن وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوربي كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية، لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل قرابة خمسة).

ويقول برتراند رسل في منتصف هذا القرن العشرين: (حمل العرب مقاليد المدنية طوال عصور الظلام، وإليهم يرجع الفضل في أن بعض المسيحيين من أمثال روجير بيكون قد حصلوا على كل المعارف العلمية التي تهيأت للشطر الأخير من العصور الوسطى).

وروجير بيكون أحد الآباء الأولين للفكر في إنجلترا.

في القرنين الحادى عشر والثانى عشر جاء شذاذ الآفاق من كل أمم أوروبا مستجيبين لصيحات البابوات والرهبان لسفك دماء المسلمين في بيت المقدس.

وأنتشأ "اللوزانيون" دولة تجوب سفانها البحر إلى أوروبا بالصادرات العربية، حتى إذا عادت القدس إلى أصحابها استمرت سفنهم تجوب البحر بتجارتهما بين المسلمين وبين أهل أوروبا.

وترى ذلك واضحاً على الرغم من محاولات كتاب جديد يحمل العنوان القديم (تراث الإسلام) يحاول فيه المستشرقان (شاخت وبوزورث) طمس

المعلومات التي أوردتها المستشرقون الأولون الذين كتبوا كتابا بعنوان "تراث الإسلام" ترجم إلى العربية في الأربعينات من القرن الحالى بالتشكيك فيما ورد في الكتاب السابق^(٢٣٢) مستخلصا من المراجع الأوروبية والعربية.

ومع ذلك جاء في الكتاب الأخير: (أثناء الحروب الصليبية ١٠٩٥ - ١٢٩١) استقر التجار - خصوصا الإيطاليون - في مرفئ تحت الحكم اللاتيني، فشكلوا جماعات منظمة تحكمها قوانينهم، بل على العكس كان الحكام المسلمون حريصين على تشجيع هذه التجارة.

ولم تنقض فترة طويلة حتى ظهرت مستعمرات للتجارة الأوروبية حتى في مصر (التي تجرى على ثراها الحروب الصليبية) وفي أماكن أخرى لم يسبق لها أن خضعت للصليبيين كانت الترتيبات مع المستعمرات الأوروبية من وجهة نظر الفقهاء المسلمين نوعا من أنواع (الأمان) التقليدي، وكان للتجار المقيمين صفة (المستأمن).. وفي الوقت الذى ازدهرت فيه التجارة الأوروبية ونمت تعرضت الأسلحة الأوروبية للهزائم فقد طرد الصليبيون من جميع البلاد التي احتلوها).

وجاء عن الغزو التركي لأوروبا: (لم يكن اللاجئين المسلمون واليهود والمسيحيون هم المستفيدين الوحيديين من الحكم العثماني، إذا أن الفلاحين في المناطق التي غزوها قد تمتعوا بتحسن في أوضاعهم: فقد جلبت الحكومة العثمانية الوحدة والأمن محل الصراع والفوضى، كما ترتبت نتائج اجتماعية واقتصادية هامة، وقضى على الأرستقراطية المالكة للأراضى).

(٢٣٢) قدم المترجمون للكتاب الأخير دلائل على ما نسبته إلى هذين المؤلفين من تشكيك يدرکه من قرأ الكاين، وليس هنا مقام لبيان ذلك، ونرجو أن يتصدى لذلك المتخصصون، وقد نبه المترجم على ذلك في الجزء الأول، كما نبه عليه المترجمون للجزئين الثاني والثالث.

حتى مارتن لوثر "مؤسس البروتستانتية" في مؤلفه الذي نشر عام ١٥٤١ قد حذر من أن الفقراء والمضطهدين يفضلون - على الأرجح - الأتراك المسلمين بدلاً من المسيحيين ويكفي أن نعرف أن الأرز والقطن وقصب السكر... أصبحت جزءاً من الزراعة الأندلسية... منذ القرن العاشر الميلادي.

وجاء عن مصر (تكمن أهمية مصر في الجمع الفريد بين عدد من العوامل مكنت مصر من تصدير فائض زراعي كبير وبين حاجتها إلى الأخشاب تستوردها، وإلى المعادن كذلك).

وجاء عن التجار الذين نقلوا الإسلام إلى آسيا وأفريقية (وقد كان لهؤلاء "التجار الأوائل" من المسلمين تأثير قوي في المجتمعات، تضي عليهم ثقافتهم واتصالاتهم التجارية، حتى صيروا الإسلام عقيدة وعلمًا وسلاحًا..).

وجاء في هذا الكتاب عن تجارة الأتراك: (وقد سبق العرب أنفسهم إلى هذه التجارات في دولة بني حمدان بحلب، وكما كانت السفن تنقل الحبوب (القمح) من الجنوب إلى الشمال كان العثمانيون (تركيا) يبيعون إلى أوروبا الذرة، ورأينا وزيراً عثمانياً سنة ١٥٥١ يبيع حمولة سفينة من الذرة إلى البندقية في جنوب إيطاليا، وكمثلهم صنع المماليك بمصر، وكانت تجارتهم مع أوروبا نافقة... يشترون منها الرقيق - من الجنوب في روسيا- ليربوه ويجندوه ويحاربوا به، بل يصل بعض هؤلاء إلى أن يكون حاكم البلاد أو ملكاً عليها).

وسنجد النقود الإسلامية في أقصى الأرض من شمال أوربة.

الفرع الثاني الوكالات الأجنبية والقياسيات

المبحث الأول:

الوكالات الأجنبية والقياسيات

وتدل الصورة الفقهية لعقد القراض وانتقالها إلى صيغ التعامل في أوروبا، وعملية التحويل الدفترى المضمون بورقة (السفجة) وهو لفظ عربي قيل إنه تحريف لكلمة فارسية، وربما كان تحريفاً للفظ Sauvutage بمعنى الإيقاد البحري وسعوا مضمونه ليشمل ضمان نقل الحق. وبكل منهما يظهر التأثير الإسلامي على الممارسات التجارية في دول البحر الأبيض المتوسط، ومثلها انتقال ألفاظ كثيرة جداً تجل عن الحصر مثل لفظ (عوار) ولفظ (تعريفة) ولفظ (ديوان) ولفظ (أميرال بحار) ولفظ (دار الصناعة) ولفظ (حبل) ولفظ (قيراط) ولفظ (مخزن) ولفظ (الحوالة) إلى لغة المعاملات التجارية هنالك.

والمعاملات التجارية بعض المعاملات، لها مكانها في فقه الفقهاء، مثل كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي (٥٠٥هـ) ومن قبله بقرنين وضع الجاحظ رسالة في التجارة، ومن بعده بقرنين تكلم ابن خلدون عن النقل الزماني (الاختزان) والنقل المكاني، أي النقل بين الأسواق كما تحدث عن الاحتكار، وانتقد "الدولة التاجرة" وأبرز رفعة شأن التجارة، ودعا الحكام إلى إكرام التجار.

كما عرف الفقه الإسلامي نظام التفليس من قديم، وأصل الإمام الشافعي (٢٠٤هـ) أصوله في الأم. ولإمام مالك أقواله في "طرح البحر" من أول

القرن الثانى. وللإمام أبى حنيفة في الموضوع أقوال معاصرة لقول مالك. وكل أولئك مسائل في قوانين التجارة.

وكان بمصر لكل جالية أجنبية فندق في الثغور وفي العاصمة. وفي عهد الدولة الفاطمية وعد الخليفة العاضد أهل "بيزا" بترميم فنادقهم، مما يدل على وجودها في القرون السابقة، ويدل على ذلك أن صلاح الدين وقد انهى حياة الدولة الفاطمية اتفق مع مندوب "بيزا" على السماح لأهلها بممارسة شعائرهم. كما ورد في كتاب (أخبار مصر) لابن ميسر، وفي (خطط المقرئى) بيان عن رقابة التجار.

وكان لتجار الروم (أهل أوروبا) حى خاص بهم في مدينة القاهرة، وصرح صلاح الدين لهم بممارسة شعائرهم، واستعمال موازينهم، ومكاييلهم ومقاييسهم في البيع والشراء من المصريين وغيرهم مما يدل على أن ثمة سوقاً يؤمه المصريون، وغيرهم.

وفي ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ دخل صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس. كانت الفنادق محال لإقامة التجار بمتاعهم، وبضائعهم، وفيها كنائس لإقامة شعائرهم، وأفران لخبزهم، وحمامات لتوفير الخدمة الكريمة لهم، وأماكن يتبذون فيها، كما خصصت فنادق لتجار الشام والعراق. و"القيساريات" معناها "الفنادق القيسرية" نسبة إلى قيصر الروم، وهى السوق الرسمية.

والقيسارية خان عظيم تغلق أبوابه بالحديد، تطيف به الحوانيت كما وصفها ابن ميسر في (أخبار مصر) وقد يكون فيها مساجد للتجار المسلمين، يعلوها ربع أو ربيع يسكن فيها الصناع والتجار، وكانت وكالة الغورى الشاهقة بحى الأزهر - الآن - واحدة من أمثال لها في ضواحي القسطنطينية والقاهرة.

وكان في السوق لكل صناعة عريف يتولى أمرها، وتحمل السوق اسم الصناعة أو التجارة الخاصة بها كما أورد المقرئى فى (إغائة الأمة) (وعلى العريف أن يحضر الصنائع ويختم المصنوعات وله أن يأمر الطهائة بتغطية الآتية وحفظها من الذباب والهوام بعد غسلها بالماء الساخن.

وفى السوق "محتسب" يولى العرفاء من الخبراء بالسلع وبالغش، وكان العرفاء مشهورين بالأمانة يطلعون المحتسب على أخبار من يشرفون عليهم يوماً بعد يوم، وعلى السلع المجلوبة وعلى حركات السوق، وأسعار البضائع من الداخل والخارج.

وإذا غش تاجر أو صانع أركبوه جملاً وطافوا به وهو يصيح: لقد غششت فعوقبت.

ومن السلع ما لا يباع إلا على يد دلال. ويثبت الصفقات موظف مختص فى السوق، كما يثبت قيمتها والدلائل والمنادين عليها، ولا ينبغى لأحد منهم أن يزيد فى السلعة من تلقاء نفسه، فذلك متروك للبائع والمشتري، ولا أن يقبض ثمن سلعة دون أن يكون موكلاً بذلك من صاحب الشأن).

ولما كشف البرتغال طريق الهند تغيرت الطريق إليها، فلم يبلغ القاهرة فى سنة ١٥١٢م من تجارة جمهورية البندقية (فينيسيا) إلا ما قيمته ٨٠٠ ألف دوكا، وعشرين ألفاً من النقد.

المبحث الثانى:

فنادق القاهرة للتجار الأجانب

فى الأسكندرية والقاهرة كانت الفنادق الخاصة بالتجار الوافدين من الشاطئ الشمالى للبحر، وينقل إلينا كتاب (تراث الإسلام) الأخير (أن فنادق الأسكندرية لم تكن مثل نقرطيس القديمة، "مدينة خاصة بالإغريق منذ القرن

الثاني قبل الميلاد" قريبا من الأسكندرية في محل أطلال نقرائش بمحافظة البحيرة الآن "مركز قوة تجارية" ومن الجدير بالملاحظة أنها كانت منذ القرن الخامس عشر "الثامن الهجري" ثققل ليلا من الخارج، وأن نظاما خاصا بالتجار الأجانب كان متبعاً في بيع بضائعهم إلى السلطات مباشرة في مزادات رسمية، وأن نظام الرسوم الجمركية كان غالبا في المعاملات بمصر، وأن هذا الوضع كان يعكس مزيجا من البيروقراطية والقوة العسكرية، وأن النفوذ الأسامي للتجار الغربيين لم يكن للقوة العسكرية التي تسندهم، وإنما كان اعتماداً من الحكومة المصرية عليهم من أجل الوفاء بحاجاتها من البضائع الاستراتيجية الأساسية).

وفي هذا السياق نسمع عن اشتراك اثنين من اليهود مع مسلم في تجارة مرسيليا مع سبتة في (المغرب) في القرن الثالث عشر... كما وجدت جماعة من التجار الشرقيين من أصول مختلفة بسجلات الشهر العقاري بنجوا (إيطاليا) في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي.

يقول المرجع المشار إليه: وإذا اتجهنا شرقاً من جزيرة العرب فسنجد المقدسي الجغرافي (٩٨٥) يحدثنا في القرن الرابع الهجري "العاشر والحادى عشر الميلادي" أن الفراء والخشب كانت ترد إلى المسلمين، كما تبيننا الحفريات عن وجود العملة السامانية (الغالبية) على حكام بغداد إذ دخلوا في الإسلام) في اسكنديناوه وأيسلنده في شمال أوروبا.. أما طريق الحرير إلى الصين فيشق قلب آسيا (دول الكومنولث) الروسية الآن.

وفي بداية القرن الحادى عشر اعتنق السلجوقيون الإسلام بعد أن دخلوا أرضه، وفي القرن التالى اعتنق التتار الإسلام أيضاً.

وفي الهند ظهرت اللغة (الأردية) وهى مزيج من العربية واللهجات الهندية، وصدرت (الفتاوى الهندية) وهى مجموعة فقهية متبعة الآن يحتج بها

رجال القانون في المحاكم في مصر، تحتوي على الفقه الحنفي.
وجاء في كتابنا عن الإمام الشافعي^(٢٣٣): (وكان "خان مسرور" فندقا بين
فنادق كثيرة بالقاهرة، به وحده ١٠٠ حجرة، يقصده تجار سوريا، وكان
بالقاهرة وكالات تجارية، منها وكالة "قوصون يخزن بها السوريون بضائعهم،
رأى فيها المقریزی في القرن الخامس عشر الميلادي" أربعة آلاف إنسان
يعيشون فيها.

وفي عصر حروب صلاح الدين (٥٦٥ - ٥٨٩هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣م)
كان بالإسكندرية في شتاء ١١٨٧ - ١١٨٨م سبع وثلاثون سفينة تجارية
قادمة من الجمهوريات الإيطالية وغيرها من الدول الأوروبية تحمل تجارات
أوروبية والشرق وهو العام الذي دخل فيه بيت المقدس.

وأذن الملك العادل (٥٨٩ - ٥٩٥هـ) أخو صلاح الدين، وأبو الملك
الكامل (٦١٥ - ٦٣٥هـ) لأهل البندقية (جمهورية فينسيا الإيطالية) أن ينشئوا
فندقا لتجارهم في الإسكندرية، وصار لهم فيها قنصل، واستطاعوا فيما بعد
أن يضمّنوا مائة ألف جنيه استرليني فرضتها مصر لإطلاق سراح ملك
قبرص عندما أسرته.

وذاث يوم دفعت سفينة واحدة ٢١ ألف جنيه استرليني مكوسا على
حمولتها بالإسكندرية ومن قبل ذلك في عهد المستنصر الفاطمي (٤٢٧ -
٤٨٧هـ) وفي القرن الحادي عشر الميلادي قرر ناصرى خسرو أن الخراج
اليومي بمدينة "تتيس" وحدها ألف دينار، وأن بساطها دائما ألف سفينة بعضها
للتجار، وبعضها للسلطان. كما قرر أنه رأى بالقاهرة عمارات تبلغ أربعة
عشر طباقا، وأن بالقاهرة ٢٠٠٠٠ دكان يملكها الخليفة الفاطمي، أجره الواحد

منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية، دعك من سائر الناس والبلاد وشتى مصادر الإيراد من زراعة ذاتعة الصيت، وتجارة عالمية، وصناعة هي مفخرة العصور الوسطى في بلدان العالم.

ولم يتضاءل المورد الخارجى إلا بعد تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م ولم تضمحل ثروة البلاد إلا بعد احتلال الأتراك لمصر سنة ١٥١٧م.

المبحث الثالث:

المستشرقون وتأثير التشريع الإسلامي في أوروبا

يقول "شاخت" في القسم الثالث من كتاب (تراث الإسلام) الأخير في مقال تحت عنوان "الشريعة الإسلامية" وهو كسائر الأجزاء قد أتعب المترجمين تصحيحاً في الهوامش - ما يأتي:

(أما تأثيرات التشريع الإسلامي على القوانين الأخرى فإنها لا يمكن أن تُبارى من حيث الأهمية، فمجرد وجود هذا التشريع...^(٢٣٤)، وأعظم هذه

(٢٣٤) ومن تعليقات المترجمين على هذا الكلام قولهما: (العبرة في الأصل غير واضحة، ولعل المؤلف يقصد بها أن مجرد وجود التشريع الإسلامي، باعتبار أنه يستند إلى حكم الله يجعل له التأثير الكبير بالنسبة لأي تأثير ممكن تحدثه الشريعة على القوانين الأخرى) والمقال من عشرين صفحة بالحجم المتوسط، للمترجمين - عليه وحده - نيف وأربعون هامشاً بين تفسير أو تصحيح، وفي بعضها تخطئة، كأن يقولوا: (هذا مخالف للحقيقة) في صدد كلامه عن ولاية الحسبة وولاية المظالم أنهما أمر واقع لم يردا في الشريعة. وقد أسلفنا أن النبي ﷺ عين المحتسب وتبعه في ذلك عمر بن الخطاب والدول الإسلامية، كما كانا يحاسبان عمال الدولة بصرامة عن الغلول والثراء الطارئ... أو يقولان: (وقول "شاخت" .. فيه تجاوز للحقيقة).

التأثيرات لم يأت من التشريع الإسلامي بالمعنى الدقيق، بل جاء في القانون التجاري المتعارف عليه، ونما في ظل التشريع الإسلامي، فالعديد من أنظمة القانون التجاري انتقل في العصور الوسطى إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط، وقد اندمجت هذه الأنظمة في القانون التجاري والقانون المتعارف عليه في التجارة الدولية، والشاهد على ذلك مصطلحات، هي لفظ "المخاطرة" Mohatar ولفظ Aval كلمة "حوالة" العربية، أى: تحويل الديون.. وربما أيضا لفظ "شيك" جاء من الكلمة العربية "صك" وكلمتا Sensalis و Sensal. جاءتا من الكلمة العربية (سمسار) وهناك احتمال قوى أيضا في أن تكون العملية المعروفة باسم Commande مشتقة من عملية القراض.

وهناك تأثير هام آخر.. حيث نجد أن المسيحيين الذين استعربوا أخذوا يستعملون في وثائقهم وعقودهم الصيغ الفنية المتبعة في الوثائق الإسلامية، واحتفظوا بهذه الطريقة في مدينة طليطلة.. بعد أن استعادها النصارى عام ١٠٨٥/٤٧٨ وفي الطرف المقابل من البحر الأبيض نجد أن التشريع الإسلامي قد أثر تأثيراً عميقاً في جميع فروع القانون في إقليم الكرج (جورجيا السوفيتية سابقاً).. وأخيراً هناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام،

= أو يقولان: (هذا حكم لا معنى له ولا نعرف من أين جاء به "شاخت" ومن أسف أن اطلاعنا على الأصول قليل جدا أو يقولان (المؤلف هنا يناقض نفسه) أو (يبدو أن المؤلف يشير هنا إلى..) أو (لعل المقصود هنا) أو (كلام المؤلف هنا يحتاج إلى إيضاح) وقد استفتحنا هوامشها بعبارتين تفيدان أن الدكتور أباريدة قد تفضل بمراجعة هذا القسم وقال: بصراحة (الكتاب هنا يعبر بإيجاز وبعبارات تلائم القارئ الأوروبي) والمستشرقون وفي طليعتهم "شاخت" يكتبون مالا يرضى عنه الله، - وينكرون على طريقتهم - حقائق الإسلام للملاءمة فكر القارئ الأوروبي.

وعاشوا في الدولة الإسلامية.

ويبدو أن موسى بن ميمون^(١) قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته^(٢).. ومن جهة أخرى فإنه من الجانب المسيحي ليس من شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة الشرقية وهما البيعاقبة والمنوفيزيين والنسطوريين لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي).

وربما أجزأ في بيان أثر التجارة في نشر الإسلام ما جاء في مقال مستشرق معاصر من أشد الدعاة محالاً ضد الإسلام في العصر الحالى هو بزنارد لويس حيث يقول في طبعة كتاب (تراث الإسلام) التى أشرنا إليها:
(الواقع أن ارتباط الإسلام بالتجارة كان هو السبب الرئيسى لدخول هذا العدد من شعوب الأرض في الإسلام.. كان لعامل التجارة الإسلامية الأثر الأكبر ووقاflهم العظيمة تجوب الصحراء).

المبحث الرابع:

أوربة تنقل قوائين التجارة عن العرب

رجعت فلول الصليبيين المنهزمين وأتقين من أن نصره المسلمين عليهم مردها إلى الحضارة التى شهدوهم عليها وما فيها من تقدم فى الصناعة والزراعة، والأسرة الوثيقة العرى والمجتمع الذى ينبض بالطهارة والتكافل،

(١) الفيلسوف اليهودى. واليهود يسمونه موسى الثانى

(٢) وقال بصراحة: (الكاتب هنا يعبر بإيجاز وبعبارات تلائم القارئ الأوروبى).

والمستشرقون - وفي طبيعتهم "شاخت" - يكتبون ما لا يرضى عنه الله، وينكرون - على طريقتهم - حقائق الإسلام للملأمة فكر القارئ الأوروبى!

ولم يكد ينقضى قرنان حتى نقلوا إلى اللاتينية العلوم العربية في جامعات أوربة، وظهرت دوافع الإصلاح الدينى، وتفاقت نزعات الاضطهاد الكنسى للمصلحين.

وفي سنة ١٦٤٨ انقسمت أوربة بعد عشرات الأعوام من الحروب إلى قسمين بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستنتية بمعاهدة أعلنت الحرية الدينية. هكذا سلخ العالم المسيحي من عمر الزمان قرونا عشرة بعد نزول الإسلام ليسلم - نظرياً - بما نزل به القرآن أنه (لا إكراه في الدين) ولتتردد في لغات مصطلحات المسلمين وكلمات اللغة العربية، ومنها قواعد التجارة، أمر بنقلها ريتشارد (قلب الأسد) ملك انجلترا وهو راجع من الشرق بعد صلح (حطين) مأخوذاً بما لمس من سماحة المسلمين ونزاهتهم في حروبهم وتجارتهم، وقد بعث إليه صلاح الدين بطيبه يعالجه عندما مرض، في حين رفض أبقرراط أن يعالج عدواً لبلاده قائلاً: (إن شرفى يمنعى من أن أداوى عدواً لبلادى) وما يزال الأطباء يقسمون ما يسمى قسم (أبقرراط) في أوربة بالتزام الأمانة الطبية.

وحقيقة نقل القوانين عن العرب تتردد أنباوها عند المشرعين المسلمين، من فقه التجارة مع الأوروبيين الذى تتضمنه الكتب العربية والأوربية، وتدل عليها ما سجلته محاضر لجنة القانون المدنى في مجلس الشيوخ بمصر بجلسة ١٩٤٨/٦/١م على لسان أستاذ القانون التجارى بجامعة القاهرة د. محمد كامل ملش:

(إن فضل الشريعة الإسلامية معروف. فهناك مثلاً كتاب أصدره أساتذة جامعة أوكسفورد يسمى "تراث الإسلام" يقول إن فضل الشريعة الإسلامية على القوانين الأوربية عظيم لدرجة أننا أخذنا من الشرع الإسلامى كثيراً من القوانين الخاصة بالمعاملات التجارية والشركات التجارية، وفي مقدمة ذلك"

شركات التوصية التي يسميها علماء الشريعة شركات القراض.. لقد تناولت الشريعة الإسلامية عدة مسائل اعتبر علماء الغرب أنهم كانوا أسبق إليها. ومن هذه المسائل مسألة سوء استعمال الحق، ونظرية مسئولية الدولة، وأكثر من ذلك التشريع البحري الذي يعتقد كل إنسان أنه تشريع غريب عن البلاد نرى أن علماء الشريعة اشتغلوا به، ولا أقول هذا من عندي بل أنقله عن كتاب اثنين من كبار علماء البلجيك هما اسمسترش وفنكولونير، وأحدهما نقيب المحامين، والآخر مستشار محكمة النقض، وضعا كتابا سنة ١٩٣٨ سماياه (قانون البحر والنهر) قالوا فيه:

(إن القوانين المعمول بها الآن في أوروبا مأخوذة عن العرب وسندهما في أن ريتشارد "قلب الأسد" - ١١٩٩ - عند عودته من الحروب الصليبية وقف في جزيرة في المحيط الأطلسي اسمها جزيرة "أوليرو" وأمر من معه من الموثقين أن يدونوا جميع القواعد الخاصة بالتجارة والعبادات البحرية التي نقلوها عن العرب وقت اشتغالهم بالحروب الصليبية)^(٢٣٥).

ويؤيد ما ذكره المؤلفان في هذا القرن ما جاء في كتاب ليون كان ورينو في القرن الماضي بكتابهما Manuel de droit commereial الطبعة الثالثة ١٨٩٤ حيث جاء تحت عنوان: ثانياً تاريخ ومصادر القانون التجارى البحرى الحالى ما ترجمته قنصلية البحر - أحكام ملفات أوريلو Orelon دليل البحر. قنصلية البحر: بيان بقواعد القانون البحرى المعمول به في البحر الأبيض المتوسط وترجع هذه التسمية إلى لفظة (قنصل) الذى كان يطلق من

(٢٣٥) في هذه الفقرة تأكيد لما سبق من أمر ريتشارد (قلب الأسد) بنقل القواعد التجارية الإسلامية، وكان مفتونا بالمستوى الحضارى لصلاح الدين. ومن مشروعات ريتشارد تزويج أخى صلاح الدين الملك العادل لأخت ريتشارد وتوجيهما ملكين على بيت المقدس وعكاه، وقد رفض ذلك صلاح الدين وأخوه ولم يفواضاه فيه.

زمن طويل على القضاة التجاريين (٢٣٦).

وهذه مجموعة تكونت من زمن غير محدد يقع بين القرن الحادى عشر والرابع عشر ونشرت في مرسيلىا وربما نشرت في برشلونة وكان مكتوبة بلغة (قطلونية) ولا ريب كانت مصدرا للعادة التجارية. فيها تعريفات وتعليلات وأمثال تجعل لها شكل عمل فقهى.

والقانون المعمول به حاليا يجد نصوصه في أحكام أو ملفات أوليرو Orelon وهى مجموعة لم تصدرها السلطات. وهى لا ريب من جمع رجل مجهول مارس العمل. وهى ترجع إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر وفيها أحكام قضائية في عدد كبير من المسائل، وبهذا تفسر تسميتها، فاسم "أحكام" مصدره أنه أفضية ولفظ "ملفات" مصدره العادة القديمة بلف المستندات حول اسطوانات. وأخيراً اسم Orelon أوريلو ربما يفسر لنا أن نسخة قديمة صدق عليها موثق في هذه الجزيرة. وكان لهذه المجموعة سلطان على النشاط البحرى إذ تتبعها الأمم مع إضافة تعديلات عليها، ودليل البحر ركن ثالث من أركان القانون التجارى، حرر في القرن السادس عشر في مدينة روان بفرنسا بيد مؤلف ليس لدينا اسمه مهتم بعقود التأمين البحرى، وقد سكنت عنه المجموعتان السابقتان؛ لأنه لم يكن موجوداً - بيقين - عندما كانا موجودين وابتداء من القرن السادس عشر أدركت الحكومات أكثر من ذى قبل أهمية التجارة لتقدم الأمم).